**المحاضرة الثانية: الكتابة التاريخية عند العرب.**

**مقدمة:**

انشغل المؤرخون منذ القدم بجمع ما خلفته البشرية من آثار مختلفة ومجابهتها بالوثائق والمخلفات ومحاولة ضبط وتدقيق الاحداث تماشيا مع المنهج العلمي، ولقد بدأ التفكير التاريخي منذ أن بدأت الإنسانية بمضامين ازدادت تعمقا مع ظهور الأديان السماوية.

وإذا أجهدنا أنفسنا باحثين عن الكتابة التاريخية عند العرب سنجد آثارها بداية من العصر الجاهلي مرورا بصدر الإسلام وصولا إلى وقتنا الحالي.

**أولا: العصر الجاهلي.**

لم يكن التاريخ عند العرب في الجاهلية معروفا بأي من مفاهيمه المختلفة السابقة الذكر، سوى أنه روايات لأحداث الماضي تتناقلها الأجيال مشافهة مع وجود بعض الآثار الكتابية و النقوش المحدودة في بعض المراكز الحضرية العربية في جنوب و شمال الجزيرة العربية على غرار الإغريق و الرومان الذين تميزوا بإطلاق العديد من الأفكار و النظريات حول أهمية التاريخ.

لذا لم تشهد لدى العرب أي تطور حول فكرة التاريخ في هذا العصر بدليل عدم بروز أي اسم لمؤرخين أو عاملين في هذا المجال، وللإنصاف يجب القول أن التاريخ نفسه لم يكن محدد المعالم و الشخصية بشكل واضح في الحضارات القديمة ومنهم العرب طبعا، ويمكننا أن نلخص ومع التاريخ عند العرب في الجاهلية على النحو التالي:

- لم يكن التاريخ معروفا بخصوصيته ومفاهيمه المتعارف عليها نتيجة انتشار الأمية و الجهل.

- كان الغالب على التاريخ الطابع الشفهي، يعتمد على الإخباريين و القصاصيين و النسابة.

- كان الشعر و الشعراء من أسس نقل الروايات و الأحداث التاريخية.

- تركت بعض المراكز الحضرية العربية بعض الكتابات و النقوش على شكل حوليات لكنها كانت محدودة المعلومات وغير متوافرة وتقتصر على أخبار الحكام و القادة و المعارك و الحوادث الكبرى.

- لم تبرز أي من الأسماء في مجال التاريخ عند العرب كما كان معروفا لدى بقية الحضارات و خاصة الإغريق و الرومان.

- كان للعرب حضارات قبل الميلاد ازدهرت في جنوب الجزيرة العربية أرخت لنفسها بأشكال متعددة، ومن المعروف ان بلاد العرب شهدت ظهور أولى الحضارات في العالم، فمنذ نهاية الألف الرابع قبل الميلاد ظهرا حضارات سومر وبابل واشور فيباد الرافدين و اخترعوا الخط المسماري، و الحضارة الفرعونية المكتوبة بالخط الهيروغليفي، إضافة إلى حضارات أخرى في بلاد الشام وشرق الجزيرة العربية، وعمان وحضارات عرب الجنوب ففي سبأ وحمير... وفي جنوب غرب الجزيرة العربية، وحضارات في وسطها مثل : كندة وتيماء وكيان، وأخرى في شمالها وأطرافها مثل الأنباط و الحضر و تدمر، يضاف إلى ذلك الحضارات في شمال افريقيا كالقرطاجية...

- رغم وجود حضارة في اليمن و الحيرة و غسان لم يصل إلينا منها كتب تاريخية وكان تاريخها نسيا منسيا لدى العرب، ولذلك دخلت عليهم الأباطيل و الخرافات عندما أرادوا الكتابة عنها على الرغم من النقوش الموجودة حتى اليوم على الآثار الباقية في اليمن و شمال بلاد الحجاز وجنوبي بلاد الشام نظرا للجهل بالخط الحميري والخطوط الأخرى في البلاد العربية القديمة.

- رغم كل ذلك إلا أن عرب اليمن في الجنوب كانت لهم كتابات دينية وتسجيلات للأعمال البشرية من طقوس دينية وبناء الأسوار و المعابد و الحصون و الحلات العسكرية هذه المدونات كانت تتسم بالاضطراب و التشويه في طريقة تاريخ الحوادث إلى أن أدخل عليها تقويم ثابت للتاريخ سنة 115ق.م.

- كما كان لدى عرب الحيرة المناذرة كتب تحوي أخبارهم وأنسابهم أشار إليها الطبري وابن هاشم، كما كانت لهم نقوش حاول ابن الكلبي قراءة بعضها لاستخلاص أمور تاريخية منها، ولم يؤثر عن الغساسنة مؤلفات تاريخية أو نشاط تاريخي محدد، مما جعل تاريخيهم متأرجحا بين ما يضم تاريخ البيزنطيين وما تروي الأخبار العربية البدوية أما عرب الحجاز وبدو مجد فكان لهم روايات شفوية من قصص عن الآلهة وروايات عن الشؤون الاجتماعية و المآثر و المعارك و الأنساب.

إذن يمكن القول أن المادة التاريخية في العصر الجاهلي تمثلت في:

**1- الأيام:** حيث كانت القبائل تروي ايامها، حروبها وانتصاراتها سواء كانت شعرا أو نثرا.

**2- الأنساب:** كانت كل قبيلة تحفظ نسبها وتحفظه أبناءها لتضل نقية بعيدة عن الشوائب و لتستطيع أن تفخر به عن القبائل الأخرى.

**3- تاريخ الامم المجاورة:** عرف العرب بعض أخبار من جاورهم من الأمم مثل الفرس و الرومان.

**ثانيا: مراحل التدوين التاريخي بعد مجيئ الإسلام.**

ارتبطت الكتابة التاريخية عند المؤرخين العرب " منذ صدور الإسلام ارتباطا وثيقا بالعلوم الدينية، فكان المؤرخون الأولون يكتبون في السيرة النبوية و المغازي و الأنساب و الطبقات والتراجم، ولقد جمع كثير من أئمة المسلمين بين الفقه والتاريخ وكانوا يرون ضرورة الانشغال به لخدمة الغرض الديني، حتى يصبح وسيلة لفهم الفقه و الشريعة و ما يلي مراحل تدوين

التاريخ عند العرب لكن قبل سنتطرق إلى أهم العوامل التي أدت بروز حركة تاريخية أخذت تتسع وتنتظم شيئا فشيئا حتى خلقت لنا ثروة من أغنى الثروات:

1- احتاج المسلمون في تفسير الآيات القر انية إلى معرفة أسباب نزولها و الموضع الذي نزلت فيه و الحادثة التي تشير إليها، وكل هذا يحتاج إلى بحث تاريخي في حوادث الإسلام، وهكذا كان التفسير من العوامل التي دعت إلى التدوين التاريخي.

2- أكثر القرآن الكريم من الإرشادات إلى الأمم و القبائل وقصص الأنبياء و القصص عن الغابرين، فرغب علماء المسلمين في فهم هذه الإشارات وتوضيحها.

3- كان الحديث النبوي الشريف من عوامل تدوين التاريخ، إذ عنى المسلمون بجمع الأحاديث النبوية ليفسروا القرآن الكريم ويستنبطوا منها أحكام الدين الاسلامي، وكانت اساس كتب السيرة و المغازي فيما بعد.

4- شعور بعض الخلفاء أنهم محتاجون الى الاستعانة بأخبار من سبقهم من الأمم ليستنيروا بها، وخير مثال على ذلك أن معاوية بن أبي سفيان بعد يفرغ من عمله يستمر إلى ثلث الليل في قراءة أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة.

5- كان ( الأعاجم ) يفخرون على العرب بتاريخهم وحضارتهم فلجأ العرب إلى تدوين تاريخ لهم يستطيعون به الوقوف إزاء هذا الفخر الأجنبي ويظهرون بأنهم ليسوا أقل من الأمم الأخرى.

6- كان النظام المالي للحكومة الإسلامية من العوامل التي أدت إلى قيام الحركة التاريخية وانتشارها لأن جباية الضرائب على البلدان تتباين، فدعا ذلك إلى البحث في تاريخ الفتوحات الإسلامية و الاهتمام بهذا الفرع من التاريخ.

7- تحول العقل العربي إلى التدوين و التمدن السريع و المشاركة في التدوين و التأليف في جميع العلوم فألف صحارا العيدي كتابا في الأمثال، وترجمت كتب الكيمياء في عهد خالدين بن يزيد بن معاوية، وجمع عمر به عبد العزيز الحديث.

8- استمرار العناية بالأنساب والأيام لأنها تغذي الشعراء في ميدان الفخر والهجاء، و اتخذ هذا النوع من التاريخ لونا جديدا هو العناية بغزوات الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

9- تقدير الجزية والخراج: حيث رغب الولاة في معرفة صفة ما فتح من الأمصار : صلحا، عنوة، بعهد...، وتدوين حال البلد المفتوح ومن أمثلة ذلك كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي وفتوح البلدان للبلاذري...

10- نظام العطاء: كان مرتبا حسب الأنساب وحسب الأسبقية إلى دخول الإسلام وحسب القرابة إلى النبي – صلى الله عليه وسلم- لذلك ظهرت كتب الطبقات.

**المراحل:**

**أ- مرحلة التدوين الأولى:** اتجهت الكتابة التاريخية في هذه الفترة الى اتجاهين مهمين هما: الاتجاه الإسلامي الذي زهر عند أهل الحديث و الاتجاه القبلي أو اتجاه الأيام الذي يمثل التيار القبلي الذي استمر في مجتمع الإسلام.

ويتسم التدوين في هذه المرحلة بالطابع الشخصي و العقوبة و الفضول العلمي و المنفعة الدينية و الاجتماعية، وقد بدأت عملية التدوين نقلا عن الرواة أي مشافهة و تمثلت في كتبة السيرة النبوية الشريفة وتاريخ الأنساب و تاريخ اليمن وأخبار الفتوح، ...، وامتدت حتى مطلع القرن 02هـ ، وكتب في هذه الفترة عبد الله بن العباس المتوفى سنة 87هـ وأبان بند عثمان بن عفان المتوفى سنة 95هـ، وعروة بن الزبير المتوفى سنة 94هـ الذين رووا جوانب من المغازي "، ثم جاء شرحبيل بن حسنة ( 123هـ) وابن شهاب الزهري ( ت 124هـ ) اللذان حسسنا فكرة السيرة وحاولا جعلها أساسا لكتابة تاريخ عالمي.

- ويشير العديد من المؤرخين أن الانطلاقة الفعلية للدراسات التاريخية عند العرب كانت عندما وضع عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – تقويما ثانيا هو التاريخ الهجري وما صاحبه من انشاء ديوان خاص بالحربين وتم تصيف هذه البدايات إلى: المحدثين ومركزهم المدنية و الإخباريين في كل من الكوفة و البصرة.

- بعد ذلك ظهر محدثون من الدرجة الثانية كتبوا في السيرة النبوية و القصص الشعبي و يعد كل من ابن اسحاق وابن هشام اشهر من كتبا حول السيرة النبوية.

**ب- المرحلة الثانية:**

شملت القرن 02 هـ بأكمله اهتم فيها الاخباريون بالأحداث المختلفة ذات المواضيع المتنوعة وكلها مأخوذة من افواه الرواة ، ولم ينقطع الاهتمام بالسيرة النبوية بل اتسع و انتظم واعطى السيرة شكلها النهائي على يد ابن اسحاق ( ت 151هـ ) صاحب اقدم و اكمل سيرة، لكن الاهتمام بالأخبار التاريخية الاخرة صار أكثر وضوحا، ذلك بسبب أن السيرة استكملت جميع المعارف و استنفدت جميع المصادر المعلومات المتعلقة بها.

لذا وجد الإخباريون ميادين أخرى ومواضيع سياسية واقتصادية واجتماعية تهم عامة المسلمين، وهكذا اندفع الاخباريون في تأليف الكتب و شملت مواضيع التاريخ الإسلامي و تاريخ العرب الجاهلي وبعض تواريخ الأمم وبرز خلال هذه الفترة " أبو مخنف " و " الوافد " و " عوانة بن الحكم ".

ما يلاحظ على كتابات هاتين المرحلتين حسب بعض المؤرخين أن مدوني هذه المرحلة ( ماعدا السيرة ) كانوا يطلقون العنان للخيال في تصوير الوقائع و تلوين الحوادث التاريخية بأطياف خيالية قد تخرج بها إلى حد الخيال و الأسطورة، كما تم ادخال حوادث تاريخية لا أصل لها و تجد ذلك في كتاب التيجان لوهب بن منيه وكتاب عبيد بن شربة ولذلك يصدق على بعض هذه الكتب اسم القصص التاريخي اكثر من أي نعت آخر، وتعد امتداد للحركة القصصية التاريخية التي كانت موجودة في الجاهلية، إضافة إلى تأثر أصحابها بالقرآن الكريم في الصياغة ومثال ذلك في وصفه الخلق « فاضطرب الماء وهاج ، فاصطفق، فأزبد، فصار أرضا .... ثم رفع السماء وهي دخان.... وخلق الملائكة، وأوحى في كل سماء أمرها .... وخلق الجبال في الأرض أوتادا...».

من اشهر المدونين نجد موسى بن عقبة ( ت141هـ )، وهو من المشهورين بمعرفة المغازي، و ألف فيها كتابا رواه عنه ابن أخيه إسماعيل بن إبراهيم ( ت 158هـ )، كان أصغر حجما من كتب المغازي الأخرى، توجد قطعة من هذه المغازي في المكتبة اليروسية الرسمية، اهتم فيها بعهد الرسول و الهجرة الأولى و الثانية وعهد الخلفاء الراشدين و العهد الأموي وكذلك التاريخ الجاهلي.

نرى من خلال هاتين المرحلتين أن الكتابة التاريخية عند العرب نشأت نشأة عربية خالصة، لابد فيها للفرس أو اليونان ، وهي استمرار لما كان موجود في الجاهلية أو تفرع لعلم الحديث العربي الخالص، بعد ذلك ما لبثت أن تأثرت بمؤثرات خارجية من أهل الكتاب ( اليهود و النصارى ) و الفرس بل صار أغلب المؤرخين من الموالي في أواخر القرن 02هـ ، لذا نجد التاريخ القبلي الجاهلي أو الأيام والأنساب يعني لها في العراق خاصة ( الكلبي )، ونجد القصص الخرافية الشعبية تتمر في الوجود فيظهر عبيد بن شربة الذي يعنى بتاريخ القبائل البادئة من العرب، ووهب بن منيه الذي يعنى بتاريخ اليمن واهل الكتاب، ويسير على النمط الجاهلي المأثور في القصص الشعبية، وأما تاريخ السير و المغازي في المولود في المدينة و المتفرع من الحديث فقد تأثر به في بادئ الامر بأن أبات وعروة ، وأخذت السير و المغازي تتطور سريعا فنجد " الزهري " يخطو بالتاريخ خطوة بارعة إلى الأمام، ويشرع مؤرخو المدينة في الالتفاف إلى ميادين تاريخية أخرى على يد " عروة " و " موسى بن عقبة " ، ويتوج هذا التطور بمحمد بن اسحاق المؤرخ الحقيقي الذي بمثل نهاية تطور السيرة ذات النموذج الديني.

عند المحدثين وذات النموذج الملحمي عند القصاص الشعبيين، والذي يمد بحثه إلى آفاق بعيدة لم يرها المدنيون من قبل.

وتمتاز الحركة التاريخية العربية بعدة ظواهر نذكر منها:

- لم يكن المؤرخون موظفين وإنما كانوا أناسا عنوا بالتاريخ لمجرد الرغبة الشخصية، وحبا في علم التاريخ.

- كان المؤرخون علماء يدرسون التلاميذ من عامة الشعب ويؤلفون كتبهم لهؤلاء التلاميذ و للشعب أيضا غير معتمدين على الخلفاء و الأمراء.

- صحة الأخبار العربية عن الحوادث الإسلامية خاصة و قد جاءت هذه الصحة في طريقة معالجة الأخبار فهم أخذوها عن العدول التفات و أتبعوا في ذلك ما تبعه علماء الحديث في نقدهم .

- العناية بالروايات المختلفة و الأسانيد المتنوعة، دون أي زيادة أو تفصيل على حسب الأسانيد المختلفة التي روت الأحداث.

- سار التاريخ الإسلامي بجميع صوره على النمط المعروف عن الرواة الجاهليين، من سوق القصة التاريخية و تقطيعها بالأشعار التي قد تشرح شيئا من الحوادث أو تعلق عليها أو لا تتصل بها إلا اتصالا طفيفا.

من أشهر الكتاب و الإخباريين في هذه المرحلة:

- أبو مخنف صاحب 32 كتاب حول: الردة ، الفتوح ، الشورى، الخوارج.

- عوانو بن الحكم: صاحب حيرة معاوية وبني امية و الفتوح و الردة و الخلفاء الراشدين .

- سيف بن عمر: الردة ، الفتوح ، الفتنة ، موقعة الجمل.

- هشام بن عمد السائي الكلبي، الف ازيد من 150 كتابا في تاريخ اليمن الخلفاء ، اخبار الأوائل.

- الهيثم بن عدي: له 50 مؤلفا في الأنساب، القبائل، الخوارج، ولاة الأمصار، خطط البصرة، الكوفة .

- نصر بن مزاحم: 50 كتابا " الجمل " صفين ، مقتل الحسين ، مقتل عمر بن الخطاب.

**المرحلة الثالثة:** هي مرحلة تدوين التاريخ على أساس التسلل الزمني، وجمع المواضيع المتعاقبة على التوالي في كتاب واحد، وما يميز هذه المرحلة هي سيطرة المنهج الحولي في التدوين التاريخي، وتتوطد نهائيا نهاية ق 03هـ ، وتأسست على مرتكزين هما:

- وحدة التاريخ الإسلامي وأهمية تجارب الأمم الإسلامية.

- وحدة تاريخ البشرية من خلال سلسلة الأنبياء.

ونسجل البدايات الأولى لدى ابن اسحاق صاحب السيرة أواسط ق 02هـ واسحاق بن إبراهيم صاحب كتاب « السير في الأخبار و الحوادث » وفي خطوة أخرى نجد جميع السير و الأخبار في كتاب واحد، كما تم وضع أول كتاب في التاريخ على أساس الطبقات لتراجم الرجال.

في هذا الصدد يقول " دي يور" : يمتاز مؤرخو العرب الأقدمون بالقدرة على إدراك الجزئيات إدراكا دقيقا، غير أنهم لم يقدروا على ربط الحوادث برباط جامع، ولم يكن السواد الأعظم في صدر الإسلام يستطيعون القراءة و الكتابة فلم يدون تاريخ الأمة العربية إلا بعد زمن غير قصير ... حتى إذا جاء القرن الثاني الهجري أخذ العرب يبحثون تاريخهم ...»

**العوامل المؤثرة في هذه المرحلة:**

- صناعة الورق اتاحت للحركة الثقافية أداة ثورية في الفكر، مما أعد على التوسع في التدوين التاريخي.

- الدور الريادي لمؤلفات المرحلة الأولى و الثانية.

- خصوصية العصر العباسي الأول وما يليه من تطور حضاري وتألف علمي وفني وتوسع في حكرة الترجمة .... سمح للمؤرخين السعة في الافق و التوازن في النظرة التاريخية لمختلف الحضارات وتسلسلها.

- ظهور مؤرخين عظام، أكسب عملية التدوين زخما وانتشارا شعبيا على غرار خليفة بن الخياط ( ت 240هـ ) ، وابن قتيبة الدينوري ( ت 270 ه، ) و ...

- تشجيع الخلفاء للرواية التاريخية والتدوين التاريخي وشغفهم بالاستماع للأخبار و الروايات التاريخية.

- تأثير و دوافع الحركة الشعبوية التي أبرزت الحاجة إلى تاريخ أصول الشعوب و الأعراق و الأثنيات في سباق محموم لإثبات الوجود و العراقة و الأصالة.

- دوافع الحاجة و الضرورة للعرب المسلمين بناء الدولة الإسلامية .

- الاستفادة من قواعد علم الحديث و السيرة النبوية الشريفة.

- فرض التاريخ نفسه كحاجة للأمة العربية الإسلامية الناهضة لتأخذ دورها ومكانتها بين امم وحضارات العالم.

أهم مؤرخي هذه المرحلة:

- أبو حنيفة الدنيوري ( ت281 ه ): الأخبار الطوال.

- أحمد بن ابي يعقوب، اليعقوبي ( ت 294ه ): تاريخ اليعقوبي.

- محمد بن جرير الطبري ( ت 310ه ): تاريخ الأمم و الملوك.

- المسعودي ( ت 346 ه): مروج الذهب – التنبيه والاشراف – أخبار الزمان.

- مسكويه، أحمد بن محمد ( ت 421ه ): تجارب الأمم وتعاقب الهمم.

**التاريخ عن ابن خلدون**

أحدث ابن خلدون ( 732ه – 8098ه ) ثورة منهجية في كتابه التاريخ و الكتابة التاريخية: حيث انتقل به من مجرد الإخبار عن الدول و الأيام إلى الإخبار عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، واعتبره من الفنون، ويفرق المؤرخين الذين سبقوه ويصنفهم إلى نوعين، الأول ( استوعب ما قبل الملة من الدول والأمم كالمسعودي ومن كان على شاكلته، والثاني عدل عن الاطلاق إلى التقيد واستوعب أفكار أفقه وقطره، واقتصر على أحاديث دولته و قد تعددت اسماؤهم ومدارسهم وكتاباتهم التاريخية لتشمل الفتوحات و الطبقات وسواها من المواضيع التاريخية.

لقد سطعت اسماء العديد من المؤرخين العرب منذ القرنين السادس و السابع الهجريين منهم ابن الاثير ( ت 620ه )، الذهبي ( ت748 )، ياقوت الحموي ( ت 626)، أبوا الفداء ( ت 732ه )، وغيرهم، في فترة شهد فيها التاريخ العربي الإسلامي مرحلة كبيرة من التطور.

ان المتتبع لما كتبه ابن خلدون يرى ادراكه لمختلف عمليات وخطوات الكتابة التاريخية، مستهجنا النقل دون تدقيق أو تمحيص، ووضع قواعد وأسس في البحث التاريخي معتمدا على جملة من النقاط:

- ملاحظة الظواهر الاجتماعية – تعقب تلك الظواهر في العصور السابقة بعصره.

- تعقب الظواهر في شعوب لم يزرها و لم يحتك بها.

- الموازنة بين تلك الظواهر .

- التأمل فيها للوقوف على طبائعها وعناصرها الذاتية و استخلاص القوانين.